

مقدمة

يعد "محمد شكري" من أشهر الكتاب الروائيين في الوطن العربي إثارة لإشكالات سردية عدّة لا سيما من خلال عمله الروائي الذاتي (الخبر الحافي)، وهو العمل الذي سجل فيه تاريخه الشخصي وتاريخ م فهو يسرد "شكري" مدينته طنجة ورسم تحولاتها الاجتماعية والثقافية . جاء عمله بالفرنسية أوّلا ثم ترجم إلى العربية، فهو لم يكن على طريقة اعترافات جان جاك روسو (Jean-Jack Rousseau) ولم يكن فضائحيّا على طريقة الكتابات الشعبيّة بل جاء كما وصفه بعض النقاد بالعمل الذي يصلح أن يكون وثيقة اجتماعية وتاريخية. من خلاله يسرد "شكري" مراحل طفولته وشبابه بكل ما فيها من بؤس وفضيلة ورذيلة ، حيث يرسم ملامح الأمكنة والأزمنة بعيون شرائح مختلفة مجتمعية مختلفة: المهرّبون، الإسكافيون، المشرّدون ، الماجنون والداعرون والداعرات من البشر. وفي كلّ هذه الشرائح نجد علائق متناقضة من الفقر والحرمان والتصلعك ، فهو يخرج بروايته من إلى نوع من الكتابة المضادة للمجتمع والتي تسعى إلى تحطيم الطّابوهات المقدّسة والتمرد على المأثورات السائدة اتجاه المحرّمات والمكبوتات والمسكوتات. وهو الأمر الذي أثار الكثير من علامات الاستفهام حول الكاتب؟.

يأتي بحثنا هذا الموسوم بـ: "سوسيونصية السرد في رواية الخبر الحافي لـ محمد شكري" ليحاول معرفة ما الذي تزيد رواية السيرة أن تقوله في خطابها الروائي من إيديولوجية ، ومن رؤية اجتماعية وسياسية واقتصادية؟ . وبالطبع هذا لا يأتي على شكل خطاب سياسي ، أو اجتماعي مباشر ، وإنما من خلال بنية روائية قادرة على أن تحفظ بالخاص وأن تقوله ، وقدرة على تجاوز هذا الخاص إلى العام ومن هنا فإن قيمة النص الروائي الذي يقول سيرة كاتبه تكمن في قدرة هذا الروائي على تشرّب واقعه في اللحظة التاريخية التي يتم البوح بها روائياً.

وجاء اختياري لرواية "الخبز الحافي" بسبب اهتماماتي بالأدب المغربي والذي لم يأت من عدم بل يرتكز على دوافع نوجزها فيما يلي:

1 - إنّ "محمد شكري" أصبح ظاهرة في الأدب العربي، بل حتى العالمي تستحق الدراسة لما أثاره من إشكالات ، ومن جرأة في طرح المواضيع من خلال رواياته أو كتبه النقدية.

2 - إبراز أهمية أدب السيرة الذاتية كفنّ له مقوماته ورواده ، وما يمكن رسمه عن هذا الجنس الأدبي الذي قوامه نصوص أدبية عديدة ومتنوعة وما يفرق بينها لا يقل عمّا يجمع بينها. إنّها فسيفساء من النصوص السردية تحكي حياة مؤلفيها وتحتاج إلى التصنيف والتحديد والتعرّيف.

3 - دراسة حقائق تتعلق بفترة زمنية عاشها الكاتب زماناً ومكاناً تصوّر المجتمع المغربي وهو يقع تحت نير الاستعمار والاضطهاد والقهر ، مما أدى إلى تفشي عديد من الظواهر السلبية فيه.

4 - الحاجة إلى مثل هذه الدراسات لأهمية هذا النوع من الكتابة ، والتي تعدّ وثيقة ثمينة تاريخياً وأدبياً، لأنها غنية بمحفوّياتها.

ووفق هذا سأحاول الإجابة على بعض التساؤلات والاستفهامات ومن بينها:

- هل يمكن ضبط تعريف مفهوم السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، وما هي الإشكالات الفنية التي يطرحها هذا الجنس الأدبي.

- ما الذي تحمله الرواية في خطابها الروائي من رؤية اجتماعية وسياسية واقتصادية.

- إلى أيّ مدى يمكن اعتبار الإبداع الأدبي حقلًا فكريًا للتفاعل الأيديولوجي للممارسات التطبيقية في المجتمع.

- إلى أيّ مستوى يمكن للنص الروائي أن يرتبط بالبني الاجتماعية اللغوية لعصر ما.

- إلى أيّ مدى يكون فيه الأدب وسيلة إعلامية مرتبطة بالرأي العام من حيث تأثيره في القيم والاتجاهات العامة في سلوك الأفراد والجماعات.

ومن تحديدي لطبيعة إشكالية البحث فقد قسمت البحث إلى أربعة فصول بالإضافة إلى مدخل ومقدمة وخاتمة .

حاوّلت في المدخل ضبط مصطلح الترجمة الذاتية والإشكالات العالقة به ، خاصة وأنه يتداخل مع فن الرواية ، محاولا إبراز التداخل بين السيرة والرواية ، وحاوّلت تحديد نوع الجنس الأدبي لرواية "الخبز الحافي" ، كما لخّقت مضمونها .

ثم تطرقـت في الفصل الأول إلى الرواية والأيديولوجيا ، وأولـيـت اهتماماً كبيراً لأنـا نرى أنـه المنزع الأيديولوجي الأساس والوظيفي للإبداع . وكـذا المصادر الأيديولوجـية للروائيّ محمد شكري وتجليـها في خطابـه الروائيّ وأهمـ هذه المصادر المصـدر الـ دينـي والثقافة الغربية بمـكونـاتها كـافـة؛ ويـتجـلى ذلك في مـترجمـاته في جميعـ الحقولـ المـعرفـية، وـكـذلك تـجـلتـ في نـفـسـهـ الأـدبـيـ منـابـعـ الثقـافـةـ العـربـيـةـ التـرـاثـيـةـ وـالـحـادـثـيـةـ عـلـىـ حـدـ سـوـاءـ؛ وـهـوـ ماـ أـعـطـىـ مـصـارـدـهـ الأـيدـيـوـلـوـجـيـةـ تـنـوـعاـ وـثـرـاءـ، وـأـدـخـلـهـ فيـ عـالـمـ التـحـوـلـاتـ الأـيدـيـوـلـوـجـيـةـ بـيـنـ مـنـاطـقـ أـيدـيـوـلـوـجـيـةـ مـتـبـاـيـنـةـ أـثـرـتـ فيـ حـيـاةـ الكـاتـبـ وـفيـ إـبـادـاعـهـ الرـوـائـيـ. وـاعـتـمـادـاـ عـلـىـ المـقـوـلـةـ التـيـ تـقـوـلـ "ـأـنـ الفـنـ الرـوـائـيـ مـواـزـاـ لـلـوـاقـعـ"ـ، درـستـ مـكـوـنـاتـ الـوـاقـعـ الـاجـتمـاعـيـ وـالـسـيـاسـيـ كـماـ حـاوـلتـ تـقـصـيـ جـمـيعـ الـمـشـاهـدـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـمـآـزـقـ التـيـ يـعـانـيـ مـنـهـاـ الـمـجـتمـعـ الـمـغـرـبـيـ وـهـذـاـ مـاـ يـخـلـقـ التـبـاـيـنـ فـيـ حلـ هـذـهـ التـنـاقـضـاتـ وـفـيـ تـصـورـاتـ الـمـسـتـقـبـلـ فـتـقـعـ الـذـاتـ فـيـ مـصـيـدةـ الـاغـتـرـابـ؛ لـذـلـكـ مـنـ الـمـهـمـ بـلـ الضـرـوريـ أـنـ نـتـابـعـ هـذـاـ الـاغـتـرـابـ عـلـىـ مـسـتـوـيـاتـهـ كـافـةـ؛ الفـرـديـ وـالـجـمـاعـيـ وـالـاغـتـرـابـ الرـوـحـيـ وـالـطـبـقـيـ وـأـنـ نـبـحـثـ فـيـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ وـأـسـبـابـ نـشوـئـهـ وـحلـولـهـاـ . وـعـالـجـتـ فـيـ الفـصـلـ الثـانـيـ مـنـ الـبـحـثـ الـبـنـيـةـ النـصـيـةـ بـمـفـرـدـاتـهـ الـمـكـوـنـةـ وـعـنـاصـرـهـ جـمـيعـهـاـ، وـفـيـ الـمـقـامـ الـأـوـلـ الـمـكـانـ الرـوـائـيـ وـطـبـيـعـةـ الـمـكـانـ وـعـلـاقـتـهـ بـمـكـانـ الـوـاقـعـ وـدـلـالـاتـهـ الـنـفـسـيـةـ، وـطـرـائـقـ تصـوـيرـ الـمـكـانـ وـأـنـوـاعـهـ.

ويـأتـيـ الزـمـنـ وـهـوـ الـقـدـرـةـ النـصـيـةـ الرـوـائـيـةـ الـمـهـمـةـ فـيـ الفـصـلـ الـثـالـثـ وـفـيـ درـاسـةـ الـزـمـنـ سـأـعـودـ لـلـخـطـابـ؛ لـأـنـهـ يـطـرـحـ الزـمـنـ قـدـرـةـ مـؤـثـرـةـ لـهـاـ فـعـلـهـاـ وـدـلـالـاتـهـ الـنـفـسـيـةـ وـالـفـكـرـيـةـ، وـحاـوـلتـ الـاـهـقـامـ بـدـرـاسـةـ هـيـكـلـيـةـ الـزـمـانـ وـتـقـنيـاتـهـ بـيـنـ مشـهـدـ وـتـلـخـيـصـ وـاستـبـاقـ وـقـفـزـ وـاسـتـرـجـاعـ وـفـرـاغـ زـمـنـيـ وـوـضـحـتـ سـيـرـورـةـ الـزـمـنـ وـتـسـلـسلـهـ وـحـرـكـتـهـ. وـفـيـ الفـصـلـ الـرـابـعـ قـمـتـ بـدـرـاسـةـ الـحـدـثـ وـتـكـوـينـهـ. وـ بـمـاـ أـنـ الشـخـصـيـاتـ تـرـتـبـطـ اـرـتـبـاطـاـ وـثـيقـاـ بـالـحـدـثـ؛ لـأـنـهـ الصـانـعـ الـأـمـثـلـ لـلـحـدـثـ، هـذـاـ مـاـ جـعـلـنـاـ رـعـسـ الشـخـصـيـاتـ

وأنماطها وفق محددين اثنين: الفعل والانفعال، وقامت بدراسة أساليب تقديم الشخصيات، كما درست اللغة الروائية المكون النصي الأساسي والأول في العملية الإبداعية ومرتكز أي نص وقوامه الذي لا يكتسب وجوده إلا به وتنوعت مفردات البحث اللغوي ، مبرزاً أهم السمات التي يتسم بها أسلوب شكري الروائي. ووضحت من خلاله أنواع التصوير الروائي، كالتصوير الثابت ، والمحرك ليصل البحث إلى خاتمه التي أجملت فيها ما توصلت إليه من نتائج في كل الفصول.

ولتحقيق ذلك كان لابد من الاستناد إلى منهج علمي استقيناها من إفادتنا من بعض الدراسات ألا وهو المنهج السوسيونصي ، وهو في اعتقادنا الأنسب للوصول إلى الأهداف المسطرة للبحث، باعتبار الدراسة السوسيونصية منهجا نظريا يعتمد على مقولات بيير زيماء (P.V.Zema) الذي استطاع أن يجمع بين المقولات التي سبقته، ويسلح بمفهوم التناص الكريستيفي (J.Kristeva) ، والحوار الباختيني (M.Bakhtin)، ويجسد البنية الدالة لقولدمان (L.Goldman). كما أستعنت بالمنهج السيميائي في تحليل الشخصيات ، معتمدا على تصنيفات فليب هامون (F.Hamon).

أما فيما يخص المصادر والمراجع التي رافقتي في هذا البحث ، فهي تتتنوع بين العربية والترجمة، من شأنها أن تسهم في محور دراستنا ، وقد سقط بعضها من بحثنا بسبب أو لآخر ومن بين أهمها ذكر :

— المراجع العربية:

- جليلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث.
- عبد الله العروي: مفهوم الأديولوجيا.
- سليمان حسين: مضمرات النص والخطاب.
- محمد عزام: شعرية النص السردي.

ونذكر من أهم المراجع المترجمة:

- فليب لوجون: السيرة الذاتية.
- غاستون باشلار: جماليات المكان.
- جيرار جينيت : خطاب الحكاية.

— لوسيان قولدمان: مقدمات في سوسيولوجيا الرواية.

وعلى ذكر المراجع يمكن أن تكون هذه الأخيرة من صعوبات البحث من حيث الحصول عليها ، ومن أهمها أنّ الرواية في حد ذاتها غير متوفرة في الأسواق بسبب منع نشرها وتداولها ، وكذا المراجع التي تناولت فن السيرة الذاتية ، خاصة المترجمة منها التي يصعب العثور عليها.

وختاماً يجدر بالباحث في مقامات العلم أن يتوجه بالشكراً والعرفان إلى من سدّ خطاه وأيد سعيه، ونصره على سلطان الجهل ، وفي هذا المقام أنوه بالمجهودات التي بذلها السيد المشرف الدكتور: بشير تاوريريت، في سبيل إنجاح هذا البحث المتواضع . ولا يسعني سوى أنأشكر كلّ من قدّم لي يد العون من قريب أو من بعيد ، وأخص بالذكر طلبة الماجستير تخصص سرديةات عربية .